الفصل الثالث

المجاز عن المجاز

عهدنا بالمجاز أنه «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول»[١].

فالكلمة المستعملة فيما وضعت له حقيقة، فإذا نقلت عن هذا المعنى إلى معنى آخر له صلة بالأول، كانت مجازًا، فمثلاً كلمة (رحمة) فى قولنا رحمة الله تتنزل على عباده ليل نهار حقيقة؛ لأنها استعملت فيما وضعت له، لكنها فى قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ** ... ﴾ [الجاثية: ٣٠] مجاز عن الجنة؛ لأن دخول الناس الجنة يكون برحمة الله[٢] وواضح أن القرينة ﴿ **فَيُدْخِلُهُمْ** ... ﴾ لأن الدخول لا يكون إلا فى مكان والرحمة معنى من المعانى لا يتأتى الدخول فيها.

وقد يكون المجاز ليس متفرعًا عن الحقيقة مباشرة، ولكنه متفرع عن مجاز آخر نزل منزلة الحقيقة بالنسبة للمجاز الذى تفرع عنه، وقد مثل له عز الدين بن عبد السلام بقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فقال: «.... إنه مجاز عن مجاز فإن الوطء يتجوز عنه بالسر، لأنه لا يقع غالبًا إلا فى السر، فلما لازم السر فى الغالب سمى سرًا، ويتجوز بالسر عن العقد، لأنه سبب، فيه، فالمصحح للمجاز الأول الملازمة، والمصحح، للمجاز الثانى التعبير باسم المسبب الذى هو السّر عن العقد الذى هو سبب، كما سمى عقد النكاح نكاحًا؛ لكونه سببا فى النكاح وكذلك سمى العقد سرًّا لأنه سبب فى السر الذى هو النكاح فهذا مجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح فمعنى قوله ﴿ **وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾ [البقرة: ٢٣٥] لا تواعدوهن عقد نكاح»[٣].

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٨١.

(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ١٤٥.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز: ١٤٥، ١٤٦.

وقد نقل كلام العز بن عبد السلام حول هذا المجاز الإمام الزركشى، وزاد عليه ما حكاه عن بعضهم من أن هذا المجاز يسمى مجاز المراتب، وجعل منه قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ [الأعراف : ٢٦] فإن المنزل عليهم ليس هو نفس اللباس، بل الماء المنبت للزرع المتخذ منه الغزل المنسوج منه اللباس »[١].

والذى دعانى إلى أن أعرج على هذا النوع من المجاز أننى وجدت صاحب لسان العرب يذكر أمثلة يمكن أن تعد من هذا المجاز، وإن كان لم يشر إلى أنها مجاز فضلاً عن كونها مجازاً عن مجاز، لكن سياق كلامه ينبىء أنها من قبيله، وصميمه، فقد ذكر أن السماء المطر، يقال مازلنا نطأ السماء أى المطر قال معاوية بن مالك :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابًا[٢]

ثم قال : « ويسمى العشب أيضًا سماء لأنه يكون عن السماء الذى هو المطر، كما سموا النبات ندى؛ لأنه يكون عن الندى الذى هو المطر، ويسمى الشحم ندى؛ لأنه يكون عن النبات قال الشاعر:

فلما رأى أن السماء سماؤهم أتى خطة كان الخضوع نكيرها

أى رأى أن العشب عشبهم، فخضع لهم ليرعى إبله فيه »[٣] فالسماء أطلقت على المطر لعلاقة المجاورة، ثم أطلق السماء بمعنى المطر على النبات لأنه سبب إنباته وكذلك الندى الذى هو المطر أطلق على النبات لأنه سبب إنباته، ثم أطلق الندى بمعنى النبات على الشحم، لأنه سبب تكونه فى جسم الحيوان.

وقد زاد أمر هذا (الندى) إيضاحًا فى موضع آخر، فحكى عن بعض اللغويين أن « الندى المطر والبلل، وقيل للنبت ندى؛ لأنه عن ندى المطر نبت، ثم قيل للشحم ندى لأنه عن ندى النبت يكون، واحتج بقول عمرو بن أحمر:

كثور العداب الفرد يضربه الندى تعلى الندى فى متنه وتحدرًا[٤]

أراد بالندى الأول الغيث والمطر، وبالندى الثانى الشحم، وشاهد الندى اسم النبات قول الشاعر:

---

(١) البرهان فى علوم القرآن : ٢ / ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) ينظر لسان العرب : ٣ : ٢١٠٨ (سما). (٣) المصدر نفسه والموضع.

(٤) العداب : أرض أنبتت أول نبت ثم أيسرت. ينظر لسان العرب : ٤ / ٢٨٣٢ (عدب).

يلس الندى حتى كأن سراته غطاها دهان أو ديابيج تاجر[1]

فالندى بمعنى المطر حقيقة، وإطلاقه على النبات مجاز مرسل من إطلاق السبب على المسبب، وإطلاق الندى بمعنى النبات على الشحم مجاز مرسل أيضًا من إطلاق السبب على المسبب كذلك.

ويبدو أن ندرة أمثلة هذا الصنف من المجاز جعلت البلاغيين لا يحفلون به كثيرًا، ولا يهتمون بدراسته.

وهنا يعن أمامنا هذا التساؤل هل يمكن أن يسقط من الكلام المجاز الذى يعتبر واسطة، ويبقى الكلام على مجازيته؟

الذى يبدو من كلام بعض كبار البلاغيين أن هذا أمر ممكن، فقد ذكر السكاكى - كما سبق فى قول القائل:

..... يأكلن كل ليلة إكافا

أن هناك تعلقًا بين (إكاف) و(علف) «أى علفًا بثمن إكاف للتعلق بين ذلك العلف وبين الإكاف»[2].

فنجد أنه ترك الثمن، الذى يعتبر واسطة بين العلف والإكاف، وجعله مطويًا منسيًا، ويظهر ذلك أيضًا فى كلمة (رزق) من قوله تعالى: ﴿ **وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا** ﴾ [غافر: ١٣] فإنهم ذكروا - كما سبق - أن ﴿ **رِزْقًا** ﴾ يراد به المطر؛ لأن الرزق مسبب عن المطر.

فنراهم جعلوا التعلق بين الرزق والمطر، وأهملوا أو تناسوا الواسطة بينهما، فإن كونه رزقًا ينتفع به لا يتأتى إلا بعد زراعة الأرض، ثم حصاد ما أنتجته، والانتفاع به.

ومثل ذلك ما جاء فى حديث (لو كان ثوبك فى تنور أهلك) الذى سلف ذكره، فقد نظروا إلى التعلق بين (ثوبك) والخبز، أو الحطب الذى يوضع فى التنور، وطووا الثمن الذى يشترى به والدقيق، أو الحطب الذى يشترى بثمن ذلك الثوب.

---

(١) لسان العرب: ٦ / ٤٣٨٧ (ندى)، ومعنى تلس الدابة النبات تأخذه بجحفلتها. أساس البلاغة (لسس).

(٢) المفتاح: ١٧٣.